آوصاف العمارات الخيرية فى مكة المكرمة، وعيون المياه والأسبلة الموجودة فى مدينة الميعاد أي مكة المكرمة

ليكن معلوماً للإخوة الذين يتحلون برداء الوفاء أن مدينة مكة المكرمة أرض يابسه محصورة بين سبعة جبال صخرية ، ولهذا فليس من الممكن أن يكون آهالى مكة من أصحاب الثراء اعتماداً على مقومات الأرض ذاتها .. وما أن تنتهى مراسم الحج حتى يعود الحجاج كل إلى وطنه . وحتى فى زمن خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، بعد أداء الحج جعل المنادين ينادون فى الناس ، لمن يريد أن يكون مجاوراً فى المدينة المقدسة لابد وأن يكون له نفع للمدينة. ولذلك فإن كثير من الحجاج من شتى الدول لم يُقم في المدينة.. ولم يتمكن أحد من ذلك إلا فى زمن خلافة هارون الرشيد – من العباسيين– فإن الكثيرين من أهل بيت زُبيدة زوجته ، بعد أن أتموا فريضة الحج ظلوا بالمدينة وظلوا مع عساكرهم مجاورين بها .. وكانت هناك عيون جارية ، فى الجبل المحصور بين جبل عباس ، وجبل أبطح ، ويقع فيما بين فى الجهة الشرقية والشمالية من جبل عرفات ، ويسمونه جبل مهيب .. وكانت تكثر فيه العيون الجارية ، فأجرت منه السيدة زُبيدة المياه ، بعد أن قام الكثير من أمهر العمال ، والفرهاديين [1] بحفر الأنفاق والوديان ، ونقب الجبل ، فجرت فيه العيون الكثيره ، وبحيث تتجمع فى مكان واحد ، وبناءاً على علم الهندسة ، جُمِعَّت المياه فى هذا المنخفض ، ثم أُجريت عبر العديد من الممرات حتى وصلت إلى جبل عرفات . وهناك بنوا بركتين عظيمتين لتجميع المياه .. وأجروا منهما المياه إلى جميع مشاعر الحرم وبالقرب من مِنى أقاموا بركة كبيرة أيضاً .. ومياهها تجرى داخل سوق مِنى ، عابرةً من المكان المسمى « مسجد البيعة » . وأحدثوا فى الأبطح بركتين كبيرتين . وإلى جانب مياههما الجارية، أقاموا أيضاً داخل مدينة مكة بركتين عظيمتين . ومُليئتا هما أيضاً بالمياه .. هذه العيون تجرى مياهها العذبة الزلال داخل مدينة مكة ، وتدفع عطش أهل مكة

---

(١) الفرهاديين : نسبة إلى فرهاد صاحب الأسطورة الفارسية المشهوره باسم « فرهاد وشيرين » . والتى حفر فيها فرهاد ممراً فى الجبل لكي يسير فيه اللبن لتشرب منه المحبوبة ، ولما انتهى منه علم بخبر زواج المحبوبة ، فالقى بالفأس الذى كان يحفر به الجبل إلى أعلى ، فسقط فوق راسه ومات شهيد الحب » ، المترجم

ويطلقون عليها «عيون زبيدة» .. ومن هذه العيون عُمِرَّت مكة وأصبحت وكانها مدينة تقع على نهر .. وأصبحت يانعة عامرة (عمرها الله إلى انقراض الدوران) .

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال ، أو يسأل سائل .. بينما تجرى مياه زمزم داخل مدينة مكة ، فكيف يعانى آهاليها من نقص المياه ..؟ والواضح على الفور أن ماء زمزم يدفع العطش ، ومَنْ يشرب منه مرة تكفيه لمدة أربع وعشرين ساعة .. ولكن للأغراض الأخرى كسائر الحمامات والتطهر ، فإن استعمال ماء زمزم فى ذلك ممنوع تماماً .. لإنه يُستخدم من أجل الإستشفاء ولا تجوز به الطهاره ، لدرجة أن المكيين يشتمون بالشتائم المغلظة واحد من ولاية قره مان ، ويسمى ناطراش القره مانى لأنه تطهر بماء زمزم ويلقبونه بالقره إيمانى = «أي ذو الإيمان الأسور» . ولذلك فإن طائفة الأتراك مزمومة جداً فى نظر آهل مكة .

وعدا ذلك ، ومن خيرات السيدة زبيدة أيضاً ، أن هناك قرية تُسمى جده على الطريق فيما بين مكة ومدينة جدة ، أوصلت من عيون المياه الجارية فيها ؛ المياه إلى بندر جدة ، بواسطة الجداول والمواسير مما ساعد على إعمار مدينة جده أيضاً .. ولكن بمرور الزمن ، والإهمال خُرِّبت مجارى هذه الخيرات .. وعندما كان يمر من هذه المناطق بعض ملوك الدول وسلاطينها ، كان الأهالى يتضرعون إلى الله وسائلين هؤلاء النجدة ، فقام السلطان سليم خان عليه الرحمة والغفران بصرف الكثير من المال من خزينة مصر ، وأمر بترميمها ، وتنظيفها ، وتعميرها حتى عاد إليها العمران ، ودفع بذلك أيضاً عطش حجاج بيت الله الحرام .. والجميع يذكر صاحب الخيرات بالدعاء له ، وطلب الغفران . ومن المقرر والواضح أن الكثير من العمارات ، والمباني ، والخانات ، والقصور ، والسرايات العالية أن بكل منها سبيل ماء .. وكل الأسبلة مزدانة ، ومنقوشة ، ومهتَّم بها . وسبيل «فِيزلر آغاسى» من الأسبلة الرائعة ، البديعة البنيان ، له قبة عاليه مزخرفة . على جوانبه الأربعة ترى الزخارف ، والنقوش البديعة؛ وكأنه قصر من قصور الصين العجيبة . وعليه تأريخ مكتوب بالخط الجلي المذهب ولكن من شدة الزحام لم أتمكن من القراءة ، والتسجيل . ويتصل بهذا السبيل عشرون عيناً ، تتدفق من صنابيرها المياه ، فتمنح الحياة والنماء من حولها ، وجميع المياه تجرى إليها من «نهر عرفات» . وداخل السوق السلطاني تقع قرية ، تجرى

فيها المياه . ومن الثابت أن عيون المياه ، وينابيع الحياة التى تجرى فى كل الخانات ، والحمامات ، والمساجد ، والأسبلة ، والبرك كلها من خيرات السلطان سليمان خان . . كما أن خيرات المعمار سنان ، وصوقوللى محمد پاشا ، وخاصكية سلطان ، وسائر السلف الصالح من الملوك والسلاطين تمتد ، وتنتشر فيما بين مكة وعرفات ؛ وأن جميع هذه العيون ، والأسبلة ، والينابيع تستمد مياهها من نهر عرفات .

وبالقرب من جبل عمر هناك چشم = عين = سبيل السلطان سليمان خان . ينزل إليه بسلالم مكونة من ثلاثين سلّمة حجرية . عين فيها الماء سلسبيلا ولكنها خربت بمرور الآيام . وفى حوالى سبعين مكاناً من السرايات والقصور العالية آبار ، وعيون ذات صهاريج تستقى مياهها من العيون السابقة ، وكلها مبذولة المياه فى أوقات الحر والقيظ . ومياهها عذبة صالحة للشرب . وفى سبعمائة دار من دورمكة وخاناتها آبار مياه عذبة تمنح الحياة لطالبيها . . لأن مدينة مكة تقع فى وادٍ غير ذى زرع إلا أن مياهها بهذه العيون والأسبلة ، والأبار كثيرة . . ولكنها جميعها ليست عذبة ولذيذة . وكان من الممكن أن تُغمر المدينة كلها بمياه زمزم العذبة اللذيذة . . ولكن لحكمة إلاهية ، فإن لكل بئر ، وعين منها طعمه الخاص به ، وجعل لبئر زمزم خاصيته ، وميزته الخاصة به حتى يجعله معجزة سيدنا اسماعيل ؛ فلا مثيل لماء زمزم فى خواصه ، وأوصافه . . وعيون كل المسلمين معلقة به .

إن داخل مدينة مكة يحتوى على بركتين عظيمتين . . وكل واحدة منهما وكأنها خليج متلاطم الأمواج . . يستقى منهما – لآلاف المرات – آهل مكة ، وحجاجها السبعين ألفاً ، ومئات الألاف من دوابها الكثيرة . . أحدهما هى البركة المصرية ومحيطها ثمانى مائة خطوة ، وعمقها ثمانية باعات . أما البركة الشامية ؛ فمحيطها خمسمائة خطوة ، وبعمق إثنين وعشرين ذراعاً . وفي ناحيتها الشمالية ، بستان نخل طيب ، ينتهى ببناء لطيف ، ويجعل منه وكأنه منتزه ظريف يُستحب السير ، والتنزه فيه . كما أن به أشجاراً لا شبيه لها . . وفيما بين البركة المصرية ، والبركة الشامية هاتين يوجد أربعون مقهى . . وكل واحدة منها مشحونة بخلائق البشر ، ففى كل واحدة ما لا يقل عن ألف أو ألفين من الفلاحين . . ولكن هذه المقاهى ليست أبنية مصنَّعة ، بل هى مبانى عادية . . مبنية من الآخشاب كالاكواخ ، ومفروشة

بحصير من عسف النخل .. وعدا هذه المقاهى العادية ، فإن هناك سبعون مقهى آخرى أنيقة ، ومزدانة بالزخارف ، والنقوش .. وهذه المقاهى الآخيرة معمورة .. فى بعضها بعض الرواة والقصاصين ، وفى بعضها عدد من المداحين ، والشعراء ، والمطربين، وفى البعض الأخر بعضٍ من المقرئيين والسَّمار .. وفى البعض الأخر بعضٍ من الغوازى السمر ، البكر ، المحففين ، والبعض الأخر مكتَظ بالجاريات الحبشيات . هذه المقاهى تُقدم أشربة كالشاى ، والقهوة ، والسحلب ، ولبن ، ومأكولات حلوة ؛ مثل المهلبية .. وبعض الأشربة والمأكولات الخفيفة الأخرى . وتُقدم فى فناجين خطائية ، وفاغفورية . وفى مكة المكرمة المقاهى هذه هى مجمع العرفان والأدب .

* * *

جملة الدكاكين الموجودة فى داخل مدينة مكة المكرمة ألف وثلاثمائة دكاناً .. وكما سبق وأن ذكرنا فقد تزينت كلها بمناسبة اجلاس الشريف بركات . كما تَزينت كل الأسواق السلطانية = « الرئيسية » لهذه المناسبة . وما زالت أماكن هذه الأسواق تكون عامرة فى مواسم الحج ، فكل ما يخطر على البال ، أو يأتى إلي العقل تجده فى هذه الأسواق ، فمن المجوهرات الثمينة ، والأحجار الكريمة ، والسجاد الحريرى ، والأقمشة الفاخرة التى تأتي من اقاليم الدنيا السبعة تجدها هنا معروضة للبيع ، والشراء .

السمة العامة فى الأسواق أن البائع والمشترى يضعون أيديهم فى بعضها البعض ، ويبدأون فى البيع ، والشراء ، والمساومة . ولا يسمعون فرداً آخراً بما يتحدثون فيه ..

كما أن هناك فى مكة المكرمة أسواق متخصصة ، فإلى جانب السوق المصرى الذى تُباع وتُشترى فيه المنتجات المصرية ، والسوق الشامى ، والسوق اليمنى ، والسوق العراقي .. والسوق الهندى .. فإن هناك أسواق مجمعة حسب النوع ؛ فهناك سوق الحبوب التى تأتي من مصر والشام ، واليمن ، وسواكن ، ودهلك ، وزيلع . ولكن هذه الحبوب لا تأتي فى مواسمها . وجميع الأسواق نظيفة ، وطاهرة . وطعامها نظيف ، وجميع أطعمتها . وأشربتها ممدوحة ، وتلبى مختلف الاحتياجات، والأذواق . كما أن بها بعض الأطعمة الخاصة بآقاليم معينة .

ولما كان سيدنا رسول الله « ﷺ » لديه ميل لآكل الهريسة ، فلهذا تكثر الدكاكين التى تُقدم هذا الطعام تبركاً به ، واقتداءاً بما كان يقوم به عليه الصلاة والسلام . وهذا النوع من الطعام توجد عائلات تتوارث طبخه أبناً عن آب ، وأباً عن جد . وسيد الأطعمة هى الهريسة . والذين يروجون لها يستشهدون بآحاديث شريفة بهذا الصدد. وفعلاً فإن هذا الطعام لذيذ ، ومقوي ، وسريع الهضم .

وتمتلئ الأسواق بشتى أنواع الفاكهة ، وإن كان أكثرها رواجاً هو البطيخ .. وتأتى جميع الفواكه من الشام ومن مدينة عباس ، وتصل خلال يومين . وبطيخ ، وشمام ، وخوخ مدينة عباس لذيذ ومشهور كما يأتي إلى مكان الأسواق فى مكة الكثير من

الفواكة التى تأتى من الطائف كالعنب ، والرومان .. ويشتهر البلح ، والتمور فى آسواق مكة ، وتتعدد مصادره . كما أن بعض حدائق مكة ؛ كالتى فى المعلا والأبطح ينزل بعض من فواكهها وخضرواتها إلى أسواق مكة . وداخل مدينة مكة خمسة عشر بستاناً ، معظم حاصلاتها من البلح والتمر ، والليمون واللارنج والنبق ، والعنَّاب. ولما كانت معظم هذه البساتين في قصور ، وخانات الأشراف فيكثر فيها الصحبة ، وجلسات الأدب ، والسمر . عدا سبعين حديقة آخرى أو ثمانين وكلها بساتين ومزارع نخيل . وأجمل ما فى هذه الحدائق ، والرياض والبساتين شجر النبق.. والنباتات العطرية مثل الورد بشتى أنواعه ، والنسرين والبنفسج ، والرياحين المختلفة ، والهندباء . وعطورنبات الهندباء = عشب القاضى وماء الورد ، وماء البخور لا مثيل لها فى الربع المسكون من العالم .

* * *

آوصاف حمامات مكة المكرمة :

يوجد فى داخل مدينة مكة المكرمة حمامات عامة ، وخاصة . وأجملها قاطبة الحمام الذى أقامه صوقوللى محمد باشا فى الحي الذى يحمل اسمه ، وهو بناء لطيف، غاية فى الإبداع المعماري ، وهواءه نظيف ، مفروش بالرخام بالكامل ، وبه نقوش وزخارف بديعة . وهناك حمام آخر بديع ولطيف ، وهو من خيرات سنان باشا فاتح اليمن ؛ وهذا الحمام ثماني الأضلاع ، ومضيء ، ونظيف . عدا هذين الحمامين الكبار ، فإن هناك مائة وخمسة وأربعين حماماً فى القصور والسرايات الخاصة بالأشراف وهى خاصة بأهل البيت ، وعياله .. ولا يدخلها عامة الناس ، ولا يستحم فيها آهالى الحي . بل هى وقف على الأهل والآقارب . وهناك من العمالة من يقومون بكنس الشوارع الرئيسية ، وتنظيفها .. ويرشون أمام الحمامات ويحرقون مخلفاتها.. ولكثرة هذه الحمامات .. فقد انعكس ذلك على كل آهالى مكة ؛ فمظهرهم جميعاً لائقاً ، نظيفاً .. وكأنهم ليسوا من بنى البشر ، حقاً ، إنهم يستحقون الإنتساب إلي رسول بنى البشر ، فوجوههم جميعاً تتسم بالبشر ، وتعلوها الإبتسامة.

* * *

مدح أهل مكة ، وأشكال السادات الكرام سكان بكة :

ليس بخافٍ على أهل العقول ، أن آق شمس الدين زاده حمدي چلبي فى كتابه المسمى (قيافتنامه) قد كتب عن أهل مكة يقول أن شمائل وصفات أهل مكة أنهم سمر البشرة ، وبعضهم احمر اللون = آشقر ، وبعضهم أسمر الوجه ، والمكيات غزلانية العيون حلوة الطبع ، ذات عينان حلوتان .. صبوحة الوجه ، بسَّامة الثغر ، وضَّاءة الجبين .. تصرفاتها تدل على أنها تصرفات الحسيب النسيب الذى ينتسب إلى آل هاشم .. ولكن بسبب شدة الحرارة ، والماء والهواء ؛ فإن آهل مكة نحاف البنية الجسدية ، ضعفاء .. ولذلك فهم ليسوا من أهل الحرف ، وليست لديهم القدرة على الآعمال الثقيلة ، أو المهن التى تطلب جهداً عضلياً كبيراً . فهم يفضلون مهنة التجارة ، والبعض منهم يكتفى بالتعيُّش على الصرة ، والعطايا السلطانية .. ولما كان آغلب سكان مكة من ذوى الطبيعة السوداوية ، فلذلك هم لا يأتلفون بسرعة مع الآهالى الوافدين للحج والزيارة ، بل يستخدمون الكلمات والعبارات الجافة ، فى البيع والشراء ، وتصدر عنهم عباراتٍ يُستَشف منها الغضب ، والحدة .. ومن السنة المتبعة فيما بينهم أن المشترى لأى سلعة أو متاع ما لابد وأن يسأل عن سعرها .. فإن قال التاجر مثلاً بعشرة قروش . فإن قال المشترى بثمانية قروش ، فعلى الفور يغضب التاجر المكي . ويرفع السعر عن الثمن الذى قاله أول الأمر.. ولكن فيما بينهم ، فإنهم يتصافحون .. ويتساومون بالإشارات المعهودة فيما بينهم ، وبدون أي كلام كالإشراقيين ، ويتبايعون على الفور بالسعر الذى قيل فيما بينهم أول الأمر ، فهم لا يحبون الفصال والمساومة فيما بينهم ، إنهم حقاً ، يتورعون عن الحرام ، يتسمون بالنظافة ، والطهارة – فجملتهم من العرق الطاهر ..

وقد حدث فى عصر قايتباى سلطان مصر ، وبسبب حركة عصيان ، قام قايتباى بإرسال إثني عشر ألفاً من الفرسان ، وهاجم مكة على حين غفلة ، وقبض على سائر الأشراف ، ونفى الكثيرين منهم خارج البلاد ، وقبض على سبعة من الأشراف والسادات المكيين .. وأخذ العهد والميثاق من كل أهل مكة .. وجعل التجار ، ومَنْ لم يتدخل فى العصيان يتعمم بعمامة بيضاء . وأن يركب الأشراف الذين شاركوا فى العصيان خيولاً لا ذنب ولا ذيل لها .. وأن يركبون الخيل وهم حفاة الأقدام ..

ومـازالوا على هـذا العـهـد والآمـان .. ولكن بمرور الزمـان عـاد الآشـراف إلى مكة وسكنوها وامتلئت بهم . ولكنهم لا يتعممون على الإطلاق بالعمائم الخضراء مثل الزمن السابق .. ولكنهم يرتدون الملابس المصنوعة من أفخر الأقمشة الهندية .. والجبب المصنوعة من الصوف المختلف الأنواع . كما أن البعض منهم ، ومنهن يستعملون الشيلان الهندية والكشميرية ، واللاهورية الفاخرة . وتصلهم هذه من الصرة الهندية التى تفوق فى قيمتها مايصلهم من صرة آل عثمان . ولكن غلال آل عثمان تفوق سواها .. الجميع يرتدى السروال ، والبدو يرتدون القمصان = «الجلباب» . النسوة يرتدين الياشمك ويضعن على صدورهن الشال بشكل دائم .. وكسنة محببة منذ رسول الله فهن يكحلن عيونهن ، وكذا الرجال ، ويخضبون اللحى ، والأيادى ، والأقدام بالحناء .. ولا يتناولون الطعام الزفر ، فهم يفضلون القهوة. والفول ، والزيتون ، والتمور ، والحلوى ، والخوشاب ، والأرز والحساء . والشوربة ، وفى العادة يبتعدون عن الأطعمة الدسمة ، لأن الجو الحار تصعب عملية الهضم . ولبعدهم عن هذه الأطعمة الدسمة ، فهم أقوياء ، حتى وإن بدت عليهم النحافة ،.. ولذلك لانرى أطباء فى مدينة مكة ، ولو أتى إليها طبيب فإنه لا يستقر بها لعدم الكسب ، وقلة الدخل .. وفوراً يُغيِّر الديار .. وبسبب هذا الحر ، فإن آهل مكة يصومون أيضاً ستة أشهر عن الجماع .. وهناك وادي يسمى وادى عباس .. هو شبه مصيف يذهبون إليه يوماً ، ولا يوقدون فيه ناراً .. ومَنْ هم تُجار .. وبعض الأثرياء ، وعلية القوم على المذهب الشافعى ، وبعضهم على المذهب اليزيدى أو الزيدى .. وفيه نكاح المتعة جائز .. وهو أن يتزوج الرجل نظير مبلغ معيّن ، ولفترة محددة ، إذا كانت هناك أسباب تدعوه لذلك . وكان هذا فى مكة منذ الزمن القديم.. ولذلك كان أهل يُقدحون أي يزمون لهذا السبب ، ولكن فى العصر الراهن.. لم يقف العبد الحقير على مثل هذه الأحوال .. بل كانت كلها أقوال .. وافتراء على أهل مكة .. بل هم أصحاب مذاهب ملتزمة ، وطاهرة . وصبيانهم ، وأطفالهم فى غاية الأدب ، والذكاء ، والنجابة .

إن أهل مكة لا يحبون مجاورة المجاورين من الروم ، وأن أهل بلاد الروم يجدون الذوق والصفاء فى المدينة المنورة ، حيث أن أغلبهم يسكنونها .. كما أن الأشراف

ليست لهم سطوة أو نفوذ على المدينة مثلما هو الحال فى مكة المكرمة . كما أن تراب مكة طاهر ، ونظيف ، ولطيف .. أليس مخلوطاً بماء زمزم . إنه تراب التونيا ، الذى يفوق العنبر فى طهارته وفواح رائحته .

* * *

أوصاف نساء مكة المكرمة :

إن نساء مكة الطاهرة ، يتمتعن بجمال ، ولطافة ، وخفة روح ما يجعلهن كحوريات الجنة . هن ملائكيات المظهر ، على سماههن ملاحة البشر ، ما يجعلهن يتبخترن كالطاووس فى حدائق الجمال ، طاهرات ، عفيفات .. جميلات المظهر ، والمخبر .. تنطبق عليهن الآية الكريمة ﴿ **فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع..** ﴾ (*) . وأن هذه الآية الكريمة قد نزلت فى حق نساء مكة .. هن مصدر بنى آدم . يتدثرن بالملابس الحريرية طاقماً فوق طاقم .. وهى ملابس فاخرة ... مغرمات بالحلي ، والجواهر .. على رؤوسهن طواقى من الذهب الخالص ، أو من الفضة النقية . وبعضهن يفضلنها مشغوله ، ومطرزة فقط بالقشيب ، والقصب .. يغطون رؤوسهن بالأغطية الحريرية السوداء .. وعلى وجوههن يضعن النقاب والبراقع .. ويصبغن شفاههن بألوان متناسقة مع ألوان الأقمشة الحريرية .. وهن حريصات على ستر وجوههن .. ولا يُرى فيهن سوى العينان المكحولتان .. هن بإختصار سيدات ، ونساء مستورات . ولكن لهن جاريات حبشيات .. الواحدة منهن فى سمرة العنبر الخام .. وهناك الغوازى السمراوات التى يحتار اللسان فى وصف الواحدة منهن .. والبعض منهن يمارسن الرقص على الملئ ، أمام كل الناس .. وهن مشهورات ، ولهن أسماء معروفة فى بلاد الجزيرة كلها . وهذا ليس عيباً .. يتعطرن بأجود أنواع العطر الفوَّاح .. وما أن تمر إحداهن بالقرب من الرجل حتى ينفذ العطرإلى آعماق دماغه .

وذات يوم وكنت أنا العبد الحقير متوجهاً لزيارة دار الشورى الخاصة بأبى سفيان ، صادفت إحدى السيدات من اولئك اللائي يقمن الأفراح ، وكان حفل عرس وزفاف.. كانت غارقة فى الزينة والبهرجة وقد أتتنى روائحها من على بعد خطوات بعيدة وتعطر دماغى جيداً وأنا على بعد عشر خطوات على الأقل .. كانت العروس

تسيرو يسير من خلفها ما لا يقل عن خمسمائة فتى وفتاة فى سن الكتاب .. يرددون كلمة أمين .. أمين فقط .. حتى أوصلوها إلى المكان والمحل المقصود .

* * *

أوصاف مكاتب - كتاتيب الصبيان فى مكة :

يوجد فى مكة مائة وخمسين مدرسة للصبيان الذين يدرسون الأبجدية ، ومبادئ القراءة ، وهم فلذة أكباد آباءهم . وقد أنشأ كل ملك ، أو سلطان أو بادشاه من السابقين واحدة أو أكثر من مدارس الصبية هذه .. ولكن لما كانت آوقافها غير قوية .. فقد تم تخصيص لباس فاخر ضمن الصرة ، وعطايا السلطان السنوية لكل استاذ ، وقلفه بحيث تُقدم لهم سنة بسنة مع الإحسانات الآخرى .

* * *

أوصاف دور قراءة القرآن العظيم :

توجد دور قراءة القرآن الكريم فى أربعين مكاناً بمكة المكرمة ، وكلها تُحفظ القرآن، وتلاوته ، وتجويده ، وقراءته على قراءات حفص وقراءة أبى عمر ، وقراءة ابن كثير ، والقراءات السبع ، والقراءات العشر وقراءة التقريب . وتخصص المخصصات من العطايا، والجرابة واللحم لشيخ القراء ، وللقراء ، والمعلمين ، والطلبة ، والبوابين ، وكل ذوى المهام ، والوظائف بها .

* * *

أوصاف دار الحديث :

يحتوى أربعون مكاناً على دور للحديث بها .. وبها تُعقد الدروس العامة ، ويُكلف الطلبة كلٍ بوظيفة معينة . ولكن من الملاحظ أن أهل مكة غير مشغولين جداً بطلب العلم ، فجملتهم تجار ، أما علم الحديث ، وعلم الحفظ ؛ فهو خاص ووقف على مصر. والمهتمون بالعلم فى مكة فهم من المجاورين من الروم. وهم المشغولون به.

أما أهل مكة فليس فيهم هذه الكثرة من المهتمين بالعلم ، والإستماع إليه . ولم يظهر فيهم ، أو بينهم مَنْ هم من أصحاب الباع الطويل فى العلم أو طرق العرفان ، أو أهل التوحيد .. أو أصحاب المظان الكبار .. وذلك لأنهم مشغولون بالأبنية ، والأعمال التجارية ، والأبنية العالية أو رق العرفان ، أو أهل التوحيد .. أو أصحاب المظان الكبار .. وذلك لأنهم مشغولون بالأبنية ، والأعمال التجارية ، والأبنية العالية المتعددة الأدوار الموجودة داخل مدينة مكة المكرمة ، غير موجود مثيل لها فى حلب أو الشام أو العراق .. ولكن لها مثيل فى أم الدنيا مصر .. وأهل مكة من الرجال مغرمون بالنساء إلى أبعد حد . وهم أصدقاء لهن .. وهم فى أغلب الأحيان مغلوبين لنساءهن، وزوجاتهن هن اللائي يصدرن الأوامر ، ومهما كانت هذه الأوامر فهى تُنفذ .. وفى كل العصور لم يُظهر أهل مكة ميلاً إلى الجرأة ، والشجاعة .ولكنهم يهتمون جداً وبشكل مبالغ فيه بمظهرهم ، وبملابسهم ، يحنون آياديهم ، وأرجلهم ، ولحاهم ، ويحرصون على تخصيبها بالحناء . يتجولون بين المقاهى .. يحتسون القهوة بكثرة ، مغرمون بالراحة ، والنوم.. جميع أطعمتهم وأشربتهم يؤمنونها من الآسواق ، ولايبذلون جهداً فى ذلك فى المنازل .. ولما كانوا مغلوبين على أمرهم فإن نساءهم لا يطبخن شيئًا فى الدور والخانات والمنازل.. فالنساء بطيئات فى أعمال المنزل. ولا يعرفن طرق طهى الأطعمة على الإطلاق ، ولا يستطعن غسل الملابس أو تنظيفها ، ولا أعمال الإبرة ، أو الغزل ، والتطريز ، ولا يستطعن كنس ، أو تنظيف منازلهن ، بل يؤمنون لسن كل ذلك من الأسواق ، هم ، وهن من الأقوام المسرفة جداً.. ولكن لما كانوا ، وكن يعرفون الحسابات المالية جيداً فهم يصرفون أموال فرعون. لديهن ميل للإحتشام ، فقد رأون الأباء والآجداد هكذا .. واستمرت حياتهن على هذا المنوال.. ليس المقصود من ذلك هو الذم .. فحاشا .. وكلا .. ولكنه وضع قائم.. ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن أشراف مكة ، ورجالاتها فى حفلات الختان التى يقيمونها لصبيانهم .. فإنهم يقدمون الولائم إلى الحجاج المسلمين ، والتجار ويقدمون فيها الخيرات الكثيرة لكل الزوّار . ومع أن جو مدينة مكة حار ، بل شديد الحرارة ، إلا أن مياه زمزم ، وحرارة مكة قد أفادت نساءها . ولكن فى نفس الوقت جعلتا حيواناتها غيرملحمة ، بل مقددة .. وخاصة حمير المنطقة بسبب عدم وجودها لما تاكله فى وادى فاطمه .. فإنك ترى الصبية يسيرون فى الشوارع ، ويجمعون من على الأرض

نوايا التمور الملقاة عليها .. ثم توضع هذه النوايا فى الماء لمدة ليلة ، ثم تُقدم إلى الحمير .. وبعد أن تأكلها تجد هذه الحمير النحيفة تُطلق نهيقها على مقام الساة = السيكا .

* * *

أوصاف مدينة مكة ، وبيان دفن موتاها :

إن موقع مدينة مكة فى مناخ الإقليم الثاني ، أي الحار ، وهى تتوسط الكرة الأرضية .. وحسب أفواه الناس إنها فى وسط الدنيا . والحقيقة العلمية هي هكذا . ولقربها من خط الاستواء ، فإن ليلها ونهارها متساويان .. والفرق ربع ساعة فقط . دائمة السطوع نجومها ، وانعكس ذلك على مكة وآهلها .. فالجميع سعيد .. مسرور .. مبتسم الوجه ، يميل الجميع إلى البهجة والحبور .. ولو شعرأي انسان وهو داخل مكة بشئ من التوعك ، أو الإضطراب فما عليه إلا أن يتوجه فوراً إلى داخل الحرم الشريف .. وما أن يرى الكعبة المستورة بالستائر الحريرية السوداء ، حتى يزول الإضطراب الذى فى داخل نفسه ، والألم الذى يعتريه ويصير سعيداً ، بهيجاً .. ولهذا السبب فإن أهل مكة دائما مسرورون وسعداء ، تعم البهجة ، والبشاشة وجوههم . وحتى عندما صدر الفرمان السلطان بتنصيب الشريف بركات أميراً – وقام أفندينا حسين باشا بتنصيبه ، ومنحه الفرمان والنيشان .. قام المنادون على الفور بالنداء فى الناس أن يَسعدوا ، ويقيموا الأفراح لمدة ثلاثة أيام .. فزادتهم سعادة .. على سعادة ، وبهجة فوق بهجة . وما أن تمت قراءة الفرمان الذى أصدره السلطان محمد خان الثالث ، حتى أوقدوا القناديل ، والمشاعل .. فزادت مكة نوراً على نور .. وسعد كل مَنْ هم على أرض مكة من الآحياء ، والآموات .

إن مؤلفاً يُدعى الفيروز آبادي قدجمع كل أسماء مكة المكرمة ، ومن بين هذه الأسماء ، اسماً هو (قرية النمل) .. ولو توفى فتى فيها فإنه يطير فيها أى أن هذا النمل يطير فوراً .. ويسير فى كل اتجاه .. ولهذا فإن أهل هذا المتوفى يسرعون باخراجه فوراً .. حتى ولو كانت الوفاة فى نصف الليل فإنهم يجهزونه فوراً للدفن .. والقاعدة المتبعة فى مكة المكرمة ينادى المنادون ، والنجاب بخبر الوفاة .. فيحضر

الندابات بالدفوف .. ويفعمون بالمكان بصيحات التوحيد على مقام الحجاز .. وفى هذه اللحظات ؛ يكون الحانوتي ، والمغسل يقومون باعداده ، فيقصون آظافره ، ويمشطون لحيته ، ويطهرونه أولاً بغير ماء ، ثم يوضئونه بماء زمزم ، فيبدأوّن بيديه ثم المضمضمة ، ثم الاستنشاق ثلاثاً .. ثم وجهه ، فيده اليمني ثم يده اليسرى إلى المرفقين ، وتطبيقاً للآية ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ فيتم مسح ربع الرأس ، ثم يغسلون الرجلين ، وما أن يتم الغسل هكذا حتى يتسم الجسد بالنضارة ، وتعلو الوجه البسمة، وينثرون من المباخر الكافور ، والعنبر على جوانبه الأربعة ، ويتلون القرآن الكريم من حوله ، أثناء الغُسل ، ثم يبللون قميصاً بدون ياقة ، والكفن بماء زمزم ويكفنونه . ثم ينثرون ماء الورد ، والمسك ، والعنبر الخام ، وماء الهندباء .. ثم يحيطونه بالزعفران الأحمر ، وينثرونه فوق الكفن ، وهم يرددون ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) ﴾ [1] ، ثم يكتبونها ، ويضعونه فى التابوت ، وتوابيتهم ؛ ذات أربعة قوائم وعلى جوانبها الأربعة قضبان طولية ، وكأنها سلالم ، يضعون فوق التابوت غطاء من ستارة الكعبة ، وتَسير كل الجماعة أمام المتوفى ، وهم يسيرون على صوت الدفوف ، وقد رفعوا الأعلام العباسية ، وهم يرددون (لا إله إلا الله) برتابة ، وصوف رخيم ، وعند الوصول كعبة الحرم الشريف ، يردد كل أهل الميت (لبيك اللهم لبيك) ويضعون المتوفى تحت المزراب الذهبي ، ويؤذن المؤذن لصلاة الجنازة ، وحتى لو كنا فى نصف الليل ، فالحرم لا يخلو من الطائفين .. وتُقام صلاة الجنازة ، وفقاً للشريعة المحمدية ؛ وبعدها يرفع آقارب المتوفى، وأحبابه والأصدقاء الأوفياء التابوت على أكتافهم .. وعلى أمل أن يكسبونه ثواب الحج ، فيطوفون به سبعاً وهم يلبون ، ثم يخرجون من باب الجنائز ، أو من باب الصفا، ويمرون به من سوق الصفا ، والمروة .. ويكون حملة الدفوف مستمرون فى ترديد (لا إله إلا الله) وهم سعداء فرحين بلقاءه مع الله .. ثم يدفنونه فى مقابر الشهداء بالمعلا .. وبينما الإمام يُلقنه ، يكون الجميع فى هدوء وسكينه ينسحبون من حيث أتوا .. وهم يرددون (ضيف الله رب العالمين) ويطلبون له الرحمة مرددين (يرحمه الله) أو (رحمة الله عليه) . ومن المعتاد عند آهل مكة ؛ أنهم لابد أن يذهبوا جميعا ؛ شيخاً

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠١ .

أو شاباً .. رجلاً ، أو امرأة إلى مقابر المعلا ليلة الإثنين ، وليلة الجمعة، ويتصدقون على الفقراء جميعا صدقات معلومة ، ويقدمون لهم الخبز وماء زمزم . ويتلون من القران الكريم ماتيسر لهم ، ويقفون بخشوع ، وسكينة على رأس القبر ، ويضعون حوله الحنطة والماء .. والورد والريحان .. وعلى هذا المنوال يأتون إلى الموتى مرتين اسبوعياً للزيارة .. وهكذا يشعرون وكأن الميت لم يمت ، بل هم يزورونه مرتين اسبوعياً .. فبشرى وطوبا لمن يتوفاه الله فى مكة ، فبعد الدفن يقوم كل أحبته ، وأصحابه بالزيارة إلى بيت الله الحرام ويطوف من يستطيع الطواف ، فهو بذلك ينال ثواب الحج مع الطائفين ، الذين يهبون له ثواب هذا الطواف .. ومما لاشك فيه أن الله سبحانه ، وتعالى .. سيقبله من أهل الجنة .

ولماكنت أنا العبد الفقير قد وقفت وقوفاً كاملاً على هذا الحال ، تمنيت على الله أن انال هذا الثواب العميم عندما يتوفاني الله .. فكم يكون المرء سعيداً عندما ينال كل هذا الدعاء .. ويدفن وسط هذه البهجة .. والروائح الطيبة .. وكنت أردد دائماً (اللهم يسر يا مُيسر) وأوصى بعض السالكين لتقريب اللقاء بالحق أن يُوصى الراغب فى ذلك بالدفن فى منتهى الجبال الواقعة على الجوانب الأربعة لمكة المكرمة ..

* * *

بيان بالجبال الواقعة فى الجهات الأربع للبيت الشريف :

إن بين شرق وشمال سوق = ساحة منى يوجد جبل صغير يسمونه جبل سبر ، حسب الأقوال المسطرة لإسحاق ، فإن آولاد سيدنا اسماعيل مدفونون فى هذا الجبل . وأن كبش الفداء المقدم قرباناً وفداءاً لسيدنا اسماعيل قد طلع من هذا الجبل ، وأن الكبش قد ذبح قرباناً على أطراف ، وحواف هذا الجبل . وما زال به المكان المسمى « منجر» أو مذبح ، وبعض الحجاج ما زالوا ينحرون ذبائحهم فى هذا المكان ، وما زال فراراً للحجيج . وعلى الجهة الشرقية من البيت الشريف ، يقع جبل أبى قُبيس وقد سبق الحديث عنه تفصيلاً .. ولكن آلاف الصحابة كان هذا الجبل محل اهتمامهم ، ويسميه القرشيون الجبل الأمين .. وما زال مكانًا للتنزه ، والفرجة للخاص ، والعام . وبعده الجبل الأحمر ، والجبل الأخشب .. وهما الذى نزل فى

حققهما الكثير من الآسانيد والآحاديث .. ومنها . (قال رسول الله ﷺ لا نزول مكة حتى نزول أخشبها) وجبل الأخشب أعلى من الجبل الأحمر .. وجبل النور يقع على بعد مسيرة ساعة على شمال مكة . وهو المكان الذى استتر فيه الرسول عن أعين المشركين وهو ما زال مكاناً للزيارة .. وبالقرب من سوق منى يقع جبل مخصب ، وبالقرب من جامع الخنيف فى سوق منى يقع جبل المرسلات .. وبه الغار الذى كان فيه الرسول الأمين أُنزلت عليه سورة «المرسلات» . وهو مزار لكثير من الحجيج . ثم جبل حراء ، وفيه الغار العظيم الشأن ، وهو الغار الذى كان يعتكف فيه الرسول للعبادة قبل البعثة النبوية . وما زال يزار إلى اليوم . وجبل جَزَل ، وهو جبل صغير لطيف ، ولكن مرتبته عالية وجبل لعلع ، وجبل الصفا ، وهو فى الجهة الشرقية من مكة ، وهو جبل منخفض فى المكان المسمى بهذا الإسم ، وهو مثبت فى الحديث الشريف أن المصطفى وهو يسعى عليه الصلاة والسلام بين الصفا والمروة ضرب بالعصا التى فى يده الكريمة جبل الصفا .. وقد سمعت الدابة ضربة العصا ..

* * *

أوصاف مزارات الصحابة الكرام فى مكة :

غير خافٍ على آصحاب الزيارة أن فى مدافن المعلا خمس وسبعين قبة ، ومدفون بها الكثيرين من السلف الصالح من الملوك ، والسلاطين والأشراف ، والصلحاء ، والعلماء ، وآعيان مكة الكبار . ولكن أعظم هذه الأضرحة وأجدَّها هو ذلك الضريح الذى أقامه الشريف زيد .. فهو مثله مثل إرم ذات العماد ، وحضرة الشريف مدفون تحت هذه القبة الرائعة العمارة . كما أن حضرة جد الرسول الكريم عبد المطلب مدفون فى هذا المكان ، وقد توفى عن مائة وعشرين سنة ، وعندما كان الرسول الحبيب فى السابعة من عمره ، كما أن والد سيدنا عليٍّ مدفون هنا ، وكثير من الحجاج الإيرانيين يزورون هذا الضريح بحجة أنه والد سيدنا علىٍّ ، وحوله بستان نخل جميل ، ورطبة لذيذة الطعم . ويُقال أن هذا المكان هو الذى شهد معجزة شق القمر التى دارت بين الرسول «ﷺ» والمشركين . ويُقدِّم الحجاج الإيرانيون عطايا كثيرة لخدَّام هذا الضريح . وآعلاه بقليل تقع قبة ضريح السيدة خديجة . ومن المعروف أن السيدة خديجة

الكبرى قد أنجبت من الحبيب المصطفى أربع ذكور ؛ هم القاسم ، والطيب ، والطاهر وعبدالله ، وأربع إناث هن ؛ أولاً الست روقية ، والست أم كلثوم ، ولما كان سيدنا عثمان قد تزوج بهما ، فقد لُقِب بذى النورين والسيدة فاطمة وهى التى تزوجها سيدنا عليٌّ ، والسيدة زينب وهن جميعا بنات السيدة خديجة الكبرى ، والسيدة زينب قد تزوجها أبو العاص بن ربيع بن عبد العزي . أما سيدنا ابراهيم بن الرسول المصطفى فأُمه هى السيدة ماريا القبطية التى كانت ضمن هدايا ملك مصر المقوقس إلى الرسول المصطفى . وكان ملك مصر قد بعث على طريق الهدية إلى الرسول محمد بن عبد الله سيفاً وبغلاً وجاريتين فقدم الرسول « ﷺ » السيف المسمى ذو الفقار ، والبغل المسمى « دلدل » إلى سيدنا علىٌّ ، وأهدى إحدى الجاريتين إلى الشاعر حسَّان بن ثابت ، وتزوج ﷺ من ماريا القبطية وكانت هى الجارية الثانية . وهى التى انجبت له عليه السلام حضرة الحبيب ابراهيم . وبقية الأبناء الثمانية من السيدة خديجة الكبرى .

وقد لقيت السيدة خديجة وجه ربها فى مكة عن عمر وصل إلى الخامسة والستين، وهى مدفونه من مدافن المعلا . وبعض كتَّاب السير يعتبرونها هى التى قبلت الإسلام قبل أبى بكر الصديق ، والبعض الأخر يجعلها بعده . وتُلقب بأم المؤمنين .

كما أن بعض كتاب السير يذكرون أن السيدة أُم رسول الله مدفونة تحت هذه القبة أيضاً .. وقد سبق الحديث عن ذلك ... وقد أمر السلطان سليمان خان سنة ٩٥٩هـ ببناء قبة على مدفن السيدة خديجة الكبرى ، وكذا ضريح بديع .. وبابه يُفتح على جهة الشرق .. والقبة مغطاة ، ومستورة بطبقة من الجير الأبيض . وتُكثر طائفة النساء من زيارة هذه القبة اللطيفة وينثرون فى الضريح المسك ، والعنبر ، والعود ، والكافور المعطر مما يجعل الزوار فى نشوة من الروائح الزكية .. وعلى الوجه الداخلى لهذه القبة العالية نجد مكتوباً بالخط الجلي : هذه الآية الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ..﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ(١٠١) ﴾(١) .

كما أن حضرة الشريف مسعود مدفون تحت هذه القبة داخل قفص مربع ، وهذا

---

(١) سورة الانبياء : الآية ١٠١ .

القفص مغطى بالحرير الأطلس الأخضر . . ومكتوب عليه : (مولانا السيد الشريف مسعود بن ادريس ابن حسين ابن أبو يمين ابن بركات ابن محمد ابن بركات ابن حسن ابن عجلان ابن فاطمة الزهراء . .) . وجانب قبلة هذه القبة ، هناك قبة صغيرة لسيدنا عبد الله لسيدنا عبد الله الزبير ابن العوام ابن خويلد ابن عبد العزي بن قصي . جده الآعلى هو سيدنا أبو بكر الصديق . والدته هى بنت عبد المطلب ولذلك فهو من الآقارب المقربين لوالد الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وبعد ميلاد الرسول الكريم ، وفى السنة الرابعة والعشرين من مولده الكريم وُلِد فى نفس اليوم كل من الزبير بن العوام ، وطلحه بنُ عبد الله . وكان الزبير يُذهب إلى التجارة فى اليمن . وأول من آمن بالرسالة التى أُنزلت علي النبي هو أبو بكر الصديق، والثاني هو الزبير بن العوام . وهو من المبشرين بالجنة . وآثناء خلافة مروان حمار فى الشام أي فى سنة ثلاث وأربعين هجرية كان الزبير سلطاناً على مكة ، والمدينة واليمن، والعراق . وبسبب قرابته للرسول ، فقد كان مصدراً من مصادر الاستماع للحديث مثل السيدة عائشة الصدِّيقة . وقد قام بتوسيع الحرم الشريف ، وضم مساحات إليه لكى يتسع لجموع الحجاج . ولكن بسبب الخلاف والجدال قام الحجاج يوسف الظالم بتعليق جسده الطاهر على باب السلام – كما سبقت الإشارة – . وهو الذى كان قد جدد بناء المزراب الذهبي . وأغلق الباب الذى كان على الجهة الغربية ، وألحقه بالحرم . وبعد الزبير أصبح الحجاج هو الوالى على مكة والمدينة ، واليمن والعراق . وبالرغم من أنه حاول أن يكون عادلاً إلا أنه اشتهر بظلمه . وبعده يوجد قبر بنت حضرة أبى بكر . وقبر بنت حضرة عثمان . وهما عبارة عن قباب صغيرة . ، ولكن يشملهما الهدوء والسكينة . . . وبالقرب منهما الشيخ عثمان هارون ، والشيخ الكناس ، وبالقرب منهما مزار حضرة سعد بن أبى وقاص ، الذى وُلِد بعد مولد النبى بثلاث وعشرين سنة . . . وبالقرب منهم مزارات العديد من الصحابة الكرام ؛ مثل حضرة معدى كرب ، وعبد الله بن عباس ، جامع التفاسير والآحاديث . وهو مجاز بذلك من النبى الكريم . والفضل بن عباس ، وقبر الإمام عبد الكريم بن هوازن . وقبر سفيان بن عبينه ، ويسمونه قبر صفيان الصورى ؛ لإن من يُصاب بألم فى معدته ، فعليه أن يربط صرة عليها وبها قليل من تراب هذا القبر ، وبأمر الله يتم الشفاء . وهو الذى وهب بنته حبيبه إلى المصطفى ﷺ . وهناك قبر أبى حسن

الشولي . عدا هؤلاء فإن هناك آلاف من الصحابة الكرام ، وآولاد ذوى الاحترام والاعتبار ، وكلهم مدفونون فى هذا المكان المرقوم .

كما قمت أنا العبد الحقير بزيارة المقامات التى أمكننى التعرف عليها للعلماء ، والفقهاء المسلمين المرموقين .. وكذا مشايخ وملاوات مكة المكرمة ، والذين تولوا مشيختها ومولويتها خلال فترة حكم آل عثمان .. ومنهم مَنْ كان مقرباً ومحبباً إلى نفس المرحوم والدى مثل مرقد المولى عمر بن محمد ، وقد كان معلماً للسلطان عثمان الثانى ، وأصبح شيخاً لمكة المكرمة . وفى سنة ١٠٣٠ هـ . فى تلك السنة التى تجمدت فيها مياه البحر فى اسلامبول ، جاءنا خبر وفاته .. فشملنا الحزن عليه كثيراً، لإنه كان محباً كثيراً لوالدنا .. والحمد لله أن مكننى بعد ما يزيد عن اثنتي وخمسين سنة من زيارته .. ولقد قرأت ما تيسر من القرآن العظيم ويس ووهبت ثوابها إلى روحه الطاهرة . وكان على قبره المنير هذه اللوحة بخط جميل على شاهد قبره :

(خواجة عثمان خان غريب عمر بن محمد سنة ١٠٣١هـ) . وهذا من فضل ربى .. رحمة الله عليهم أجمعين . وسلم تسليماً كثيراً .

* * *